إبراهيم إبراش *

الثورات العربية وفلسطين:
استعادة البعد القومي أم تعزيز البعد الإسلامي؟

تجادل هذه المقالة في أن التغيير العربي الثوري الراهن له تأثيره الأكيد في فلسطين معتمداً على القوى الجديدة التي ستتسلم مقاليد الحكم بعد الثورة، وتشير إلى أن هذه القوى لا تحمل توجهات قومية وحدوية واضحة كما كانت الحال في الستينيات مثلاً، وإن يبقى السؤال عن التداعيات العربية للثورة مفتوحاً. ويلاحظ الكاتب أن العلاقة بين فلسطين والثورات العربية هي تأثير وتأثر، ويركز على مناقشة ثورة شباب فلسطين، ويدلل على أن الشباب الفلسطيني، مبدعي الثورات والانتفاضات التي كانوا عمادها، لا يمكنهم أن يخنعوا للانقسام والاحتلال والقمع والفساد. ويناقش الكاتب أولاً انطلاق تحركات "ثورة الكرامة"، ثم "١٥ آذار/مارس" الفلسطينية، ضمن إرث فلسطيني طويل من الانتفاضات والثورات الفلسطينية ذات الطابع الشبابي، ويتناول، علاوة على ذلك، بعض الحركات الشبابية الفلسطينية الجديدة محذراً من "التهوين" من شأنها، و"التهويل" منها.

لقد حدث، تاريخياً، تلازم ما بين القضية الفلسطينية والعالم العربي بحيث إن أي تحولات أو متغيرات كبيرة تحدث في العالم العربي إنما كانت تنعكس مباشرة على القضية الفلسطينية، فعندما تنتكس الحركة القومية والثورية العربية تنتكس القضية الفلسطينية، وعندما تنهض الحالة العربية تنهض معها القضية، فما كانت فلسطين لتضيع وتحدث نكبة ١٩٤٨ لو لم تكن الحالة العربية عاجزة، بل متواطئة مع بريطانيا، وما كانت الحركة الوطنية الفلسطينية لتعرف نهوضاً مع حركة "فتح" وبقية القوى الوطنية في أواسط الستينيات لولا حالة المد الثوري والتقدمي العربي. وفي المقابل، فإن الانتكاسات التي أصابت القضية الفلسطينية أخيراً غير منقطعة الصلة عن تراجع الحالة الثورية والتقدمية العربية منذ توقيع مصر اتفاقية كامب ديفيد مع إسرائيل في سنة ١٩٧٨، ثم انهيار النظام الإقليمي العربي بعد حرب الخليج الثانية. ومن هنا، فإن أي نهوض وتغيير تشهدهما المنطقة سيكون لهما تداعيات على القضية الفلسطينية، لكن هذه التداعيات مرتبطة بالحوامل الاجتماعية والسياسية التي ستقود عملية التغيير وتتسلم مقاليد الحكم فيما بعد نجاح الثورة.

لكن ارتباط القضية الفلسطينية بمحيطها بعد الثورات الجارية رهن بالقوى الرئيسية في الثورة، ولا يبدو أن هذه القوى ذات توجهات قومية وحدوية كما كانت الحال خلال الخمسينيات والستينيات

(*) عميد كلية الآداب في جامعة الأزهر ـ غزة.

والسبعينيات، فالتوجهات الإسلامية واضحة وكامنة تنتظر الفرصة، وبالتالي ربما يعزز البعد الديني للقضية الفلسطينية الثورة في مرحلتها الأولى. ولا شك في أن الثورة العربية اقتصرت على العالم العربي، كما أن المشاعر والتوجهات القومية العربية حاضرة بشكل ما، غير أن ما هو ظاهر حتى الآن هو الطابع الوطني بملامح إسلامية فرضها الإسلاميون لقوة إعلامهم ومالهم وتنظيمهم، وهذا ما تراهن عليه حركة "حماس" في فلسطين، لكن ما نخشاه هو ألاّ تولي هذه القوى الإسلامية أهمية كبيرة لفلسطين، بل ربما يتراجع اهتمامها عندما تنشغل بالحكم والسلطة. وفي جميع الحالات، فإن علينا الآن التعامل مع توجهات وعلاقات إسلامية وقومية مختلفة عمّا كانت عليه سابقاً، فمفردات كثيرة من أيديولوجيا الطرفين تغيرت، وقد تؤسس الديمقراطية لعلاقة تصالحية بينهما تدعم القضية الفلسطينية.

I ـ الثورة العربية والقضية الفلسطينية: تأثير وتأثر

لقد تركزت جميع الكتابات تقريباً عن علاقة الثورة العربية بالقضية الفلسطينية على تأثير الثورة العربية، وخصوصاً المصرية، في القضية الفلسطينية والصراع مع إسرائيل، وقليل منها تحدّث عن تأثير القضية الفلسطينية ودورها في قيام الثورات العربية.

ولا شك في أن تأثير القضية الفلسطينية، وخصوصاً الممارسات الإجرامية الصهيونية بحق الفلسطينيين وعجز الأنظمة العربية عن مساعدتهم، فضلاً عن تواطئها مع العدو، لم يكن مباشراً في هذه الثورات، لكن لا يُنكَر أن القضية الفلسطينية راكمت عبر السنين حالة من النقمة الشعبية على الأنظمة وممارساتها. فالجماهير العربية لم تنسَ أو تغفر للأنظمة اتخاذها موقف المتفرج على الإجرام الصهيوني خلال أعوام الانتفاضتين الأولى والثانية، ولم تنسَ أو تغفر لها صمتها بينما طائرات العدو ودباباته تقصف غزة وتحرقها، ولم تنسَ أو تغفر لها سكوتها وتواطؤها حين كان العدو يستوطن الضفة ويهوّد القدس ويدنّس المقدسات. لقد كانت فلسطين حاضرة في ضمير الثوار ووجدانهم، وإن لم تكن العنوان الرئيسي لثورتهم أو على رأس سلم اهتماماتهم. وبالتالي، يمكن القول إن العلاقة بين الثورة العربية والقضية الفلسطينية كانت تأثيراً وتأثراً.

١ ـ الثورة العربية بين وطنية المطالب وقومية التداعيات

إن الأحداث في العالم العربي تتواتر بسرعة كبيرة، بدءاً بما يجري في السودان واليمن، مروراً بما جرى في تونس وما يجري في مصر، وانتهاء بما سيجري في ليبيا واليمن وسورية، إلخ، وكلها أحداث بقدر ما تثير التفاؤل والأمل بغد أفضل إلاّ إن بعضها يثير القلق والخوف من مرحلة انتقالية ستكون مفتوحة على جميع الاحتمالات، وستتعدى في تأثيراتها الشأن الداخلي لكل دولة فتعيد ترتيب الأوضاع في الشرق الأوسط، الأمر الذي سيخلط الأوراق ويؤسس حالة من الفوضى وعدم الاستقرار، وهي حالة إمّا ستخدم سياسة الفوضى البنّاءة التي تريدها واشنطن وتخطط لها، وإمّا ستخدم شعوب المنطقة المتطلعة إلى بناء عالم عربي جديد تُحترم فيه كرامة المواطن وحرياته الإنسانية.

هذه الأحداث توحي بوجود ما هو مشترك بينها، وخصوصاً أزمة النظم السياسية العربية وانكشاف شرعيتها في جميع البلاد العربية، وأهم هذا المشترك: كسر الجماهير حاجز الخوف؛ كسر قيود الحزبية الضيقة؛ تبديد وهم أن الإسلام السياسي هو المسيطر على الشارع العربي؛ استحضار روح الثورة والأمل عند الجماهير العربية بإمكان تغيير الأوضاع السياسية؛ كسر حالة الجمود والإحباط المسيطرة على الشعب العربي؛ انكشاف أن الأنظمة ستكون نموراً من ورق في مواجهة جماهير قررت أن تكون سيدة نفسها... وفي مقابل ذلك فإن هذه اللحظة التي ستشكل منعطفاً مصيرياً في تاريخ

الأمة العربية تحتاج أيضاً إلى إعمال العقل واستحضاره، وتتطلب أقصى درجات الحذر والحكمة في التعامل مع هذه الأحداث والمتغيرات وتداعيات ذلك كله على المعادلة السياسية في الشرق الأوسط، وعلى القضية الفلسطينية خاصة.

إن المتغيرات التي يشهدها العالم العربي، وحتى في حالة صيرورتها، هي متغيرات تتجاوب مع التطلعات المشروعة للشعوب إلى الديمقراطية، وهي، على المدى القريب، ستشغل الشعوب العربية بمشكلاتها وهمومها الداخلية بعضاً من الوقت، الأمر الذي ربما تستغله إسرائيل لتصعيد عدوانها على قطاع غزة، ولتسريع سياسة الاستيطان والتهويد ما دام العرب والعالم منشغلين بما يجري داخل بلادهم، بل لا نستبعد أن تُقدم إسرائيل على إجراءات خطرة ربما تصل إلى إعادة احتلال قطاع غزة في حالة تدهور الأوضاع في مصر، وخصوصاً في شمال سيناء.

وإذا كانت المحصلة النهائية للمد الثوري العربي هي أنه سيؤثر في القضية الفلسطينية، فإن التأثير سيختلف من دولة إلى أُخرى، بل لا نستبعد أن تكون نتائج ثورة ما سلبية بالنسبة إلى القضية الفلسطينية. وفي جميع الحالات فالأمر يرتبط بالقوى الثورية، أو بتلك التي ستستلم مقاليد السلطة بعد الثورة، وأيضاً بدرجة التدخل الخارجي في مجريات الثورة، فالغرب، وخصوصاً واشنطن، يتدخل في الثورة الليبية، بينما إيران تتدخل في الثورة البحرينية.

فمثلاً، على الرغم من أهمية الثورة التونسية وما حملته من دروس، فإن تداعياتها على السياسات الخارجية لدول المنطقة، وعلى الصراع العربي ـ الإسرائيلي، بقيت محدودة، ليس لأن الثورة التونسية ثورة إصلاحية وطنية فحسب، بل لأن الجغرافيا السياسية ودور تونس في سياسات الشرق الأوسط والعالم يبقيا محدودين. ومن هنا نلاحظ كيف رحّبت واشنطن وأوروبا والعالم بثورة الشعب التونسي، ولم تجر أي محاولات للتأثير في مجريات هذه الثورة، أمّا في مصر فالعالم ينظر إلى ما يجري ويتعامل معه بشكل مختلف، ذلك بأن الوضع لم يستقر فيها بعد، وربما تحدث مفاجآت تُخرج الثورة عمّا كان يريده الشباب.

وفي متابعة للحالتين التونسية والمصرية، فإننا نلاحظ أن أي تغيير جذري في النظام السياسي في مصر سيكون له انعكاسات إقليمية ودولية، وسيعيد خلط الأوراق، وخصوصاً في ملف الصراع في الشرق الأوسط، وبالتالي فإن الحسابات السياسية والاستراتيجية المرتبطة بالمصالح لها الأولوية على حسابات الديمقراطية وحقوق الإنسان. أمّا في تونس فالغرب يتعامل مع الثورة فيها كقضية ديمقراطية وحقوق إنسان بالدرجة الأولى من دون تجاهل وجود حسابات استراتيجية على المدى البعيد.

وإذا كانت الثورة في كل من تونس ومصر موجهة ضد أنظمة حليفة لواشنطن وغير معادية لإسرائيل، وتندرج في إطار ما يسمى معسكر الاعتدال، الأمر الذي يرفع سقف توقعات القوى المعارضة للغرب، فإن الثورة امتدت إلى أنظمة من معسكر الممانعة أو قريبة منه كسورية وليبيا، وهو ما يدفع إلى التساؤل عن طبيعة القوى التي ستتسلم مقاليد الأمور في حالة انهيار هذه الأنظمة، وعن طبيعة علاقتها بالغرب وإسرائيل، وقد رأينا كيف باتت الثورة الليبية تحت رعاية حلف الأطلسي والأمم المتحدة وحمايتهما.

وهناك ملاحظة مهمة في الثورة المصرية ـ وكانت موجودة أيضاً في الثورة التونسية ـ وهي أن المتظاهرين كانوا يرفعون شعارات ويرددون هتافات تعبّر عن مطالب اجتماعية واقتصادية وسياسية محددة، وكلها ذات طابع وطني، وبعيدة عن أي أيديولوجيا، فلم يتم رفع شعارات معادية لواشنطن أو للغرب ولا حتى لإسرائيل، ولم تُحرق أعلام أميركية أو إسرائيلية، ولم يتم ترديد شعارات كبرى كالمطالبة بتحرير فلسطين أو قطع العلاقات مع إسرائيل، إلخ؛ بصيغة أُخرى، فإن مطالب المحتجين كانت مطالب وطنية تندرج في إطار الإصلاح الديمقراطي. إن وطنية وعقلانية أهداف

الثورة المصرية سببهما أن قادة هذه الثورة هم من الشباب المتعلم والواعي والمدرك لخصوصية وضع مصر الاستراتيجي ولدقة الوضع الاقتصادي فيها، وكذلك الحال بالنسبة إلى القوى والأحزاب السياسية التي التحقت بالثورة.

وبسبب وعي قادة المحتجين، وقوة التدخل الذي تقوم به واشنطن والغرب في التأثير في مجريات الأحداث، فإن القيادة المقبلة ستكون في المرحلة القريبة ذات توجهات إصلاحية داخلية، ولن تُفتح الملفات الكبرى كاتفاقية كامب ديفيد والالتزام بالسلام مع إسرائيل وخصوصية علاقة مصر بواشنطن والغرب، بمعنى أن رأس النظام سيتغير، لكن النظام في بنيته الأساسية ومن حيث سياساته الدولية لن يتغير. كما أن الجيش الذي تولى السلطة سيكون أكثر حرصاً على التمسك بعلاقة مصر بإسرائيل، وبالعلاقة بالغرب على المدى القريب على أقل تقدير، بل إن الشخصيات المرشحة للرئاسة مثل عمرو موسى ومحمد البرادعي سيكونان أكثر حرصاً من الرئيس مبارك على الحفاظ على اتفاقية كامب ديفيد وعلى علاقة مصر بواشنطن والغرب. وحتى في حالة تأليف حكومة وحدة وطنية تشارك فيها جماعة الإخوان المسلمين، فإن السياسة الخارجية لن تتغير كثيراً، وخصوصاً من جهة العلاقة بإسرائيل وبواشنطن. لكن الخوف يأتي من عدم التوصل إلى تفاهم ما بين الثوار والجيش، وبالتالي حدوث حالة فتنة وفوضى تؤدي إلى أعمال عنف، وظهور جماعات عنف سرية، الأمر الذي سيضع مصر في وضع خطر جداً، وعند ذاك، ستتاح أمام إسرائيل وقوى أُخرى فرصة لتأجيج الفتنة وإطالة عمرها.

وإذا كنا نتمنى عودة الاستقرار إلى المنطقة العربية في ظل نظم ديمقراطية، فإننا نتمنى على القيادات الفلسطينية أن تأخذ في الاعتبار أن جميع الاحتمالات واردة، وبالتالي عليها استباق الأمر بسياسات وقائية على رأسها عدم التدخل في الشأن الداخلي العربي، وإنجاز المصالحة الفلسطينية. ففي السياسة، وخصوصاً في الشرق الأوسط، فإن الاحتمالات كلها واردة، ومنها حدوث تغيرات كبيرة في المؤسسة الحاكمة في مصر، أو حالة فوضى وعدم استقرار، وكذا احتمال انزلاق ثورات عربية إلى حالة من الحرب الأهلية، وحتى الإقليمية.

٢ ـ وطنية الثورة وقومية التداعيات

ما إن اندلعت الثورة حتى راود الأمل كثيرين بأن العالم العربي يشهد انتفاضة جماهيرية ستغير رسم الخريطة السياسية في المنطقة، وتعيد الآمال العربية بالتحرر والوحدة وما سيترتب على ذلك من تغيير معادلة الصراع مع العدو، وخصوصاً أن إسرائيل وواشنطن تنظران بقلق إلى الأحداث في مصر وفي مجمل الساحة العربية.

صحيح أن المد الثوري اتخذ بعداً وطنياً حتى الآن، إذ لم يرفع المحتجون أو الثائرون شعارات كبرى كتحرير فلسطين أو الوحدة العربية أو القضاء على إسرائيل وأميركا، بل لم يتم ترديد ولا شعار واحد ضد واشنطن وإسرائيل أو حرق العَلَمين الإسرائيلي والأميركي، كما كانت الحال مع الثورات أو الانقلابات العربية السابقة، لكن الثورات العربية سيكون لها تداعيات على المنطقة كلها، ولو بعد حين، لأن الملايين التي خرجت إلى الشارع وكسرت حاجز الخوف لن تعود إلى بيوتها خاوية الوفاض، ولأن رسالة الثورة وصلت إلى جميع الأنظمة العربية، وإلى الغرب وإسرائيل. ونتمنى أن تفهم الأنظمة الرسالة جيداً، وقبل فوات الأوان، لأن الجماهير إن لم تحقق مطالبها بالتغيير الحقيقي بالطرق السلمية، فإن مصر والمنطقة العربية ستشهدان موجة من العنف المسلح ستُدخل البلاد في دوامة من عدم الاستقرار، الأمر الذي سيتيح الفرصة أمام أطراف خارجية لتُحْدِث فتنة وخراباً في العالم العربي، أكانت هذه الأطراف إيران، أم جماعات الإسلام السياسي المتطرفة كتنظيم القاعدة، أم إسرائيل وواشنطن خدمة لسياسة الفوضى الخلاّقة التي تخدم مصالح تلك الأطراف.

إن كل ثورة تعبّر عن قيم المرحلة وثقافتها ومتطلباتها، وبالتالي لا نتصور أو نتوقع أن تكون

الثورات المعاصرة نسخة من الثورات السابقة لا من حيث القوى المحركة، ولا من حيث أهداف الجماهير التي قامت بالثورة. فبالنسبة إلى الحراك الشعبي العارم الذي يضع الشعوب العربية على أعتاب ثورة حقيقية، فإننا لا نتوقع أن تقوم القيادة الجديدة في مصر مثلاً ـ في حالة حدوث التغيير الذي تريده الجماهير ـ بمباشرة خطوات دراماتيكية في السياسة الخارجية لمصر سواء من حيث العلاقة بإسرائيل أو بواشنطن والغرب، حتى إن شاركت في هذه القيادة جماعة "الإخوان المسلمين"، إذ ستطغى انشغالات الوضع الداخلي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على أي انشغالات أُخرى.

فالأيديولوجيا القومية العربية والمواقف المعادية لإسرائيل كامنة، لا شك في ذلك، في عمق العقل الجمعي المصري، لكنها ليست من أولويات الجماهير التي لها مطالب ذات طابع وطني، وبالتالي، فإن التحول في توجهات الثورة ربما يحدث مع مرور الوقت، وهذا يذكّرنا بثورة تموز/يوليو ١٩٥٢ التي كانت في بدايتها ثورة وطنية خالصة، وهو ما كان واضحاً في مبادئ الثورة، وقد أصبحت فيما بعد ذات توجهات قومية وثورية تحررية. ونعتقد أن الحائل بين السلطة الجديدة التي ستنتج من التغيير والمواجهة مع تل أبيب والغرب ليس هو الأيديولوجيا فحسب، بل لأن الجيل الجديد من الشباب والقوى المؤهلة لاستلام زمام الأمور يدرك أن الاقتصاد المصري يعتمد بشكل كبير على الخارج: معونات أميركية سنوية؛ عائدات قناة السويس؛ السياحة؛ الاستثمارات الخارجية؛ إلخ. وما يعزز أيضاً بقاء التغيرات في السياسة الخارجية محدودة هو أن التغييرات ستكون بإشراف المؤسسة العسكرية ـ هذا إن لم تستلم المؤسسة العسكرية السلطة وتقمع المتظاهرين ـ فالجيش جزء أصيل من النظام وتوجهاته ومصالحه، ذلك بأن نخبة النظام الاقتصادية تمكنت من الجيش، وكسبت ولاء كثير من ضباطه، هذا فضلاً عن الضغوط التي تمارسها واشنطن عليه، لكن فيما بعد سيتم فتح ملف العلاقة بإسرائيل وواشنطن.

وفي هذا السياق علينا التمييز بين التداعيات بعيدة المدى والتداعيات المباشرة، فالتداعيات الإيجابية فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية وتغيير الحالة العربية، ستكون بعيدة المدى، وحدوثها مرتبط بطبيعة القوى الصاعدة التي ستستلم مقاليد الأمور، أمّا التداعيات قصيرة المدى، فالمقصود بها التداعيات خلال الفترة الانتقالية الفاصلة ما بين إسقاط النظام، أو خروج الناس إلى الشارع، وبناء النظام على أسس جديدة، وفي هذه المرحلة علينا أن نكون حذرين جداً لأنها مرحلة ستتّسم بعدم استقرار سياسي ينتج منه فراغ أو ضعف أمني سيثيران الخوف لدى إسرائيل، الأمر الذي ربما يدفعها إلى اتخاذ خطوات استباقية في علاقتها بقطاع غزة، لأنها عندما انسحبت من داخل القطاع كانت تراهن على وجود نظام قوي في مصر ملتزم باتفاقية السلام وقادر على حفظ أمن حدوده مع القطاع ومع إسرائيل. إن حدوث حالة فراغ أمني في سيناء، علاوة على تغيّر نظام الحكم في مصر، هما مدعاة لقلق إسرائيل، ودافع لها كي تعيد حساباتها الاستراتيجية.

II ـ ثورة شباب فلسطين

نتيجة وحدة الثقافة والانتماء المشترك والثورة المعلوماتية تأثر شباب فلسطين بما يجري في العالم العربي، وخصوصاً في مصر الجارة القريبة، لكن شباب فلسطين لديهم تجارب ثورية رائدة، ولا سيما انتفاضتَي سنة ١٩٨٧ والأقصى سنة ٢٠٠٠، وبالتالي، عندما قرروا القيام بحراك أو ثورة فإنهم كانوا معتمدين على تاريخ ثوري وتجارب سابقة، علاوة على مستجدّ لم يكن موجوداً وهو شبكات التواصل الاجتماعي والهاتف المحمول كأدوات سهّلت عليهم التواصل وإعلان ثورتهم بعيداً عن أعين أجهزة الأمن.

ولم يكن السؤال عند شباب فلسطين هو: هل يقومون بثورة أم لا؟ بل: ضد مَن ستكون ثورتهم؟ فالشباب في العالم العربي قاموا بثورة ضد أنظمة

فاسدة وغير ديمقراطية وكان مطلبهم إسقاط هذه الأنظمة، بينما تجربة شباب فلسطين كانت ثورة ضد الاحتلال الصهيوني. أمّا اليوم، فإن مناطق السلطة تخضع للاحتلال، وهي، في الوقت نفسه، منقسمة إلى سلطتين وحكومتين فلسطينيتين باتتا عائقاً أمام الشعب وفي مواجهة الاحتلال. وعليه، فإن قرار شباب فلسطين كان الثورة ضد الانقسام.

١ ـ بعد انغلاق أفق المصالحة لا بد من ثورة فلسطينية لإنهاء الانقسام

إذا كانت الشعوب العربية تثور بسبب الفقر، فالفقر في مناطق السلطة الفلسطينية أكثر، وإن كانت تثور بسبب الجوع، فالجوع عند الفلسطينيين أشد وطأة، وإن كانت تثور بسبب البطالة، فالبطالة عند الفلسطينيين أشمل وغير مسبوقة في التاريخ، وإن كانت تثور بسبب التفاوت في الثروة وغياب العدالة الاجتماعية، فلدى الفلسطينيين من أغنياء الثورة وأغنياء السلطة وأغنياء الانتفاضة وأغنياء الانقسام وأغنياء الأنفاق وأغنياء الحصار وأغنياء الفساد السياسي ما يشكل طبقة منتفعة أكثر تخلفاً واستغلالاً وفساداً ممّا هي في الدول العربية الأُخرى. أمّا إذا ثار الشباب وأفراد الشعب لأنهم فقدوا المراهنة على الأحزاب التقليدية، أكانت يسارية أم إسلامية، والتي بات همّها البحث عن بعض المكاسب والوظائف ومشاركة النظام في بعض غنائم السلطة وبعض مقاعد المؤسسة التشريعية، فإن حالة أحزابنا وفصائلنا باتت عبئاً على الحالة الوطنية، وتكيفت مع حالة الانقسام، وفقدت الدافعية إلى الثورة والجهاد، وبالتالي، لا شيء يمنع الشباب الفلسطيني من الثورة من دون انتظار إذن من الأحزاب أو مشاركتها. وإذا ثارت الجماهير العربية بسبب غياب الديمقراطية أو نقص فيها، فالديمقراطية عندنا وُلدت متعثرة وكانت شكلية، بل حتى الديمقراطية الشكلية تم وأدها مباشرة بعد الانتخابات التشريعية الأخيرة وما تبعها من انقلاب "حماس" ثم الانقسام. وإذا ثارت الجماهير العربية بسبب امتهان الكرامة وغياب الحريات، فحدّث عنهما بلا حرج عند الفلسطينيين، فهل هناك من امتهان للكرامة وإذلال لإنسانية الفلسطيني أكثر من الاحتلال؟ وهل هناك من إذلال وانتهاك للكرامة وحَدّ للحرية أكثر من الحصار على غزة والحواجز في الضفة؟ وهل هناك من إذلال للكرامة الوطنية أكثر من الانقسام الذي دمّر المشروع الوطني وبدّد الآمال بإمكان قيام دولة مستقلة كما بدد الآمال بإمكان استنهاض الحالة الوطنية النضالية؟ وهل هناك من إذلال وامتهان للكرامة أكثر من ضياع الوطن والاستيطان المتواصل وتهويد المقدسات وعربدة المستوطنين؟ ليس ذلك فحسب، بل إننا ابتلينا بسلطتين وحكومتين وجودهما بحد ذاته إهانة للكرامة الوطنية لأن هذا الوجود والاستمرار مرهونان برضا العدو عن هاتين السلطتين وعن أدائهما. وكي تُرضيا العدو فيسكت عن وجودهما، فإنهما تعملان كل ما من شأنه لإعاقة المقاومة ومحاربتها، بل تعهير مَن يمارسها، لا فارق في ذلك بين حكومة "حماس" في غزة وحكومة رام الله.

وأنا لا أعجب لاندلا ع الثورات في العالم العربي، وإنما لخنوع الشعب الفلسطيني طوال الأعوام الخمسة الأخيرة، وهي أعوام التيه السياسي والانقسام والإذلال الوطني. فالفلسطينيون، ولعقود، كانوا سادة الثورة، ومع الثورة أضافوا إلى سجلهم النضالي مصطلح الانتفاضة، وهو المصطلح الذي دخل القاموس العالمي، وجعل شعوب الأرض تقف احتراماً وإجلالاً أمام الطفل الفلسطيني وهو يحمل حجراً يواجه به دبابات الاحتلال الصهيوني. وخلال المسيرة الطويلة للثورة بانتفاضتيها فإن الفلسطينيين ألهموا كثيراً من الشعوب وحركات التحرر في العالم، وعلّموهما دروساً في الثورة والانتفاضة والصبر على الشدائد، وكانت الكوفية الفلسطينية، وما زالت، رمزاً للبطولة والتحدي.

نعم، نحن الشعب الفلسطيني كنا سادة الثورة العربية ومبدعي الانتفاضة الشعبية والقابضين على الجمر، لكننا اليوم بتنا نعيش حالة انتظار؛ انتظار طير أبابيل ترمي اليهود بحجارة من سجيل! أو

انتظار جيوش المعتصم كي تنطلق من إيران لتحرير القدس! أو انتظار قرار أممي يقدم لنا الوطن على طبق من ذهب! أو انتظار أن تغير الثورة العالم العربي من حولنا فيشكّل كماشة تلتف على إسرائيل وتدفع باليهود إلى البحر! هلّلنا للثورة التونسية كما هللنا للثورة المصرية وسنهلل لكل ثورة عربية آتية، لكن يجب ألاّ ينتابنا الوهم بأن الشعوب العربية ثارت من أجلنا، فممّا لا شك فيه أنها تحبنا وتتعاطف معنا، لكن قضاياها الوطنية لها الأولوية على قضيتنا، وستنشغل لأعوام بأمورها الداخلية، وحتى إن غيرت سياساتها تجاه إسرائيل، فيجب ألاّ ننتظر أن ترسل جيوشها كي تحرر فلسطين نيابة عنا. إن العالم العربي سيتغير إلى الأفضل، من دون شك، والحكومات المناصرة لعدالة قضيتنا ستتزايد، ووضع إسرائيل سيصبح أكثر إحراجاً، لكن ثورة العالم العربي لن تنفعنا إن لم نباشر ثورتنا بطريقتنا الخاصة.

لقد استحسنّا دعوة شباب فلسطين، عبر الموقع الاجتماعي الفايس بوك، إلى الثورة رافعين شعار: "الشعب يريد إنهاء الانقسام"، وهي مبادرة طيبة، لكن يؤخذ على شباب ٥ شباط/فبراير، أو شباب ثورة الكرامة، أو لسوء حظهم، أنهم تسرعوا في تحديد يوم الثورة، "ثورة الكرامة"، في ١١ شباط/فبراير ٢٠١١، لأنه كان يوم الحسم بالنسبة إلى الثورة المصرية، وكان الإعلام منشغلاً بما يجري في مصر، كما أن الشباب لم يهيئوا لحركتهم المشروعة جيداً فينسقوا مع شباب الضفة، أو الشباب الفلسطيني في الشتات وداخل الخط الأخضر، لأن الانقسام لا يقتصر على غزة والضفة، بل يشمل الشعب الفلسطيني كله، وإنهاؤه مطلب وطني شامل. كما أن تدخّل بعض المواقع المحسوبة على شخصيات في حركة "فتح" شوّه الفكرة وأظهرها كأن حركة "فتح" تقف وراءها، وبالتالي، بدت ثورة الشباب كأنها موجهة فقط ضد حكومة "حماس" في غزة.

نعم الشعب الفلسطيني اليوم أحوج، وأكثر من أي يوم مضى، إلى الثورة، والمؤهلون لهذه الثورة ليسوا الأحزاب والفصائل والحركات التي فقدت صدقيتها، وأصبحت عبئاً على الوطن وعائقاً أمام استنهاض الحالة الثورية الوطنية، ولا أستثني أحداً من "حماس" إلى "فتح"، ومن الجبهة الشعبية إلى بقية الفصائل، وإنما المؤهلون هم الشباب الذين يشكلون أغلبية الشعب الفلسطيني، وهي أغلبية ليست منخرطة تنظيمياً في أي من الأحزاب والفصائل، وإنما هي الأغلبية الصامتة والمقموعة بأجهزة الأمن والخوف، أو بالراتب والقسائم. وليس صحيحاً أن حركة "حماس" تمثل الأغلبية، ولا حركة "فتح"، مع أنهما الأكثر ضجيجاً وتأثيراً بفعل المال والسلاح، ولأنهما أحزاب سلطة، وليس نتيجة التمثيل الحقيقي للشعب، وقد كشفت ثورتا تونس ومصر حقيقة أحزاب السلطة ومدى شعبيتها. إن المؤهلين لقيادة الثورة هم الشباب بكل فئاتهم، وعندما يتحرك الشباب سيخرج الشعب كله وراءهم، هذا الشعب الذي أذله الانقسام والاقتتال الداخلي والتحريض المتبادل والحصار والاحتلال وفقدان الأمل بغد أفضل، بل إن المستفيدين من الحكومتين والسلطتين سيخرجون أيضاً وراء الشباب في ثورتهم عندما يشعرون بأن الشباب لا يسعون لمناصب أو مكاسب، ولا تسيّرهم أدوات خارجية أو حزبية، فالشعب يريد الطليعة التي تكسر حاجز الخوف كما كسر الشباب في مصر وتونس حاجز الخوف.

أن يرفع الشباب شعار: "الشعب يريد إنهاء الانقسام"، لا يعني أنهم غير مدركين وجود الاحتلال وكونه الخطر الأكبر على القضية الوطنية، لكنهم، على ما أظن، يدركون أنه لا يمكن مواجهة الاحتلال في ظل حالة الانقسام، وأن القوى المستفيدة من الانقسام لن تسمح بمحاربة الاحتلال إذا كان في ذلك إنهاء سلطتها وتجريدها من مصالحها. وبالتالي، يصبح إنهاء الانقسام وإسقاط القوى المستفيدة منه والمتمسكة به مدخلاً ضرورياً لاستنهاض الحالة الوطنية العامة ولوضع استراتيجيا كفاحية تعيد القضية الوطنية إلى أصولها كحركة تحرر وطني. إن قيام ثورة فلسطينية لإنهاء الانقسام بات ضرورة وطنية اليوم،

وكل مَن سيقف في وجه ثورة الشباب لإنهاء الانقسام سيكون مدافعاً عن الانقسام، وبالتالي معادياً للإرادة الشعبية ومنحازاً إلى العدو الإسرائيلي.

ونقول للشباب إن شباب فلسطين هم الذين فجّروا جميع ثورات الشعب الفلسطيني، وهم الذين فجّروا الانتفاضتين المجيدتين، ونقول للحكومتين في غزة والضفة تعلّما درساً ممّا جرى في تونس ومصر وما يجري في ليبيا واليمن وغيرهما، فأجهزتكما الأمنية وأسلحتكما لن تنفعكما، ولا تحالفاتكما الخارجية، ولا شعاراتكما التي ملّها الشعب لأنه اكتشف زيفها، فلا الوطن والوطنية، ولا الدين والمقاومة، حكراً عليكما. ومع ذلك نتمنى أن تسارع القوى السياسية إلى إنجاز المصالحة وإنهاء الانقسام، وبالتالي تصبح الثورة غير ضرورية، لأننا ندرك ما قد تجره ثورة أو انتفاضة ضد حكومة أو سلطة فلسطينية في ظل وجود الاحتلال، إذ ربما يستغل العدو هذه الثورة كي يصبّ عليها الزيت، ويدفع عملاءه إلى التخريب والتدمير، ويقف متفرجاً على حرب أهلية فلسطينية. لكن إن لم تحدث المصالحة، فإن الثورة أو الانتفاضة ستصبحان أمراً لا بد منه على الرغم من محاذيرهما.

٢ ـ شباب فلسطين لا يقلدون غيرهم وإنما يصححون مسار ثورة شعبهم

شباب الثورة الفلسطينية لا يقلدون ثورات غيرهم، وإنما يصححون مسار ثورة شعبهم، وبالتالي ليس صحيحاً أن دوافع دعوة الشباب الفلسطيني إلى الثورة لإنهاء الانقسام هي تقليد ومحاكاة الثورات العربية التي اندلعت في تونس ومصر وليبيا واليمن، وأنه لا مبرر لتلك الثورة مستمداً من واقع الشعب الفلسطيني. فالحالة الفلسطينية ربما تتفق مع غيرها من حيث ريادة الشباب لفكرة الثورة، ومن حيث استعمال مواقع التواصل الاجتماعي الإلكترونية لنشر الدعوة إلى الثورة، ومن حيث شروط ودوافع الثورة المرتبطة بمستوى المعيشة والعدالة الاجتماعية، والتي هي، في الحالة الفلسطينية، موجودة أكثر كثيراً من أي دولة عربية، إلاّ إن الخصوصية تأتي من أن الوضع الطبيعي الذي يجب أن يكون عليه الشعب الفلسطيني هو الثورة ما دام الاحتلال جاثماً على أرضنا وأجسادنا ومُهيناً لكرامتنا ومُدنّساً لمقدساتنا. فوجود حكومتين وسلطتين ومؤسسات سياسية رسمية وأجهزة أمنية و"ديمقراطية"، إلخ، هو وضع غير طبيعي وخارج سياق مرحلة التحرر الوطني التي يفترض أنها الوضع الطبيعي، وغير ذلك هو انحراف عنها.

إذاً، الثورة الفلسطينية المقبلة، والتي عنوانها إنهاء الانقسام، ليست تقليداً لأحد، وإنما استنهاضاً لثورة مغدورة؛ ثورة غدر بها بعض أهلها قبل أن يجهضها الاحتلال. إن الثورة المقبلة التي سيكون طليعتها الشباب ومن خلفهم جميع فئات الشعب، هي تصحيح لوضع خطأ، وإعادة الأمور إلى نصابها، فالشعب الخاضع للاحتلال عليه مواجهة الاحتلال موحّداً، وثورة إنهاء الانقسام هي ثورة ضد الاحتلال تبدأ بإزالة العقبات التي تحول بين الشعب وحقّه في مقارعة الاحتلال، والانقسام أهم هذه العوائق.

قد يتساءل بعض الناس: لماذا التركيز على إنهاء الانقسام وجعله عنواناً للثورة الفلسطينية؟ الجواب ببساطة أن إنهاء الانقسام هو مفتاح عودة الشعب الفلسطيني إلى هويته وكينونته الوطنية اللتين مزقهما الانقسام، وهو مفتاح عودة القضية إلى ماهيتها وأصولها كحركة تحرر وطني، وهو المدخل لمواجهة الاحتلال سلماً أو مقاومة، فأي جهد لمقاومة الاحتلال، أكان سياسياً أم عسكرياً في ظل الانقسام، سيكون مصيره الفشل أو تكريس حالة الانقسام.

لقد أخرج الانقسام القضية الفلسطينية من سياقها الطبيعي، ودمّر المشروع الوطني، ومشروع السلام الفلسطيني، وقضى على مشروع المقاومة وأنهاه، وفَصَل الشعب في غزة عن الشعب في الضفة، وصَدّر الانقسام إلى الخارج، إلى فلسطينيي الشتات، وعزز الأحقاد بين أبناء الشعب، وشوّه صورتنا في

الخارج، ومكّن إسرائيل من العمل على استكمال مشروعها الاستيطاني التهويدي بشكل سريع ومريح، ونشر الفقر والبطالة والإحباط واليأس لدى الشعب، وصيَّر الشعب الفلسطيني، بصورة عامة، في حالة غير مسبوقة من الإذلال والتيه السياسي، وبالتالي فإن كل مَن يساعد على وجود حالة الانقسام، أو يدافع عنها، أو يقف ضد مَن يطالب بإنهائها، إنما يقف إلى جانب العدو الصهيوني.

لقد منح الشعب الفلسطيني الفصائل، وخصوصاً "فتح" و"حماس"، الوقت الكافي لإنهاء الانقسام وتحقيق المصالحة، فصبر عليها أعواماً: من حوارات إلى حوارات، ومن أوراق مصالحة إلى أُخرى، ومن وسيط إلى وسيط، والنتيجة مزيد من الانقسام والدمار، وكل من الحزبين الكبيرين، "حماس" و"فتح"، يجلس على كرسي سلطة معتقداً أنه مَلَكَ الدنيا وما عليها، ولسان حاله يقول: فليذهب الشعب إلى الجحيم.

ما كنا نتمنى أن تكون الثورة طريقاً لإنهاء الانقسام لأننا نعرف محاذير الثورة أو الانتفاضة في مواجهة حكومة فلسطينية، أكانت حكومة غزة أم حكومة رام الله، وفي مواجهة شرائح من الشعب ـ حتى إن كانت قليلة العدد ـ مستفيدة من الانقسام، وفي ظل وجود الاحتلال، العدو الأوحد والوحيد للشعب. ونعرف جيداً أن إسرائيل تترقب مثل هذه الثورة ليس لأنها تريد إنهاء الانقسام، وإنما لأنها تريد أن ينشغل بعضنا ببعض، وهي ستعمل على صبّ الزيت على نار الثورة لتزيدها اشتعالاً، لكن ما العمل؟ إلى متى سيبقى الفلسطينيون، وهم سادة الثورة والجهاد، في حالة خنوع وانتظار للمجهول؟ إلى متى سنبقى ننتظر المنقذ الخارجي؟ إلى متى سنبقى نراهن على أحزاب وحركات تماهت مع الانقسام وباتت تعتاش من ورائه؟ أمّا بالنسبة إلى إسرائيل فنحن متأكدون أن الشعب الفلسطيني وطليعته الشبابية لن يسمحا لها بحرف ثورتهما أو التأثير في مسارها، وإنما سيجعلانها ثورة سلمية حضارية، وبهدف محدد وواضح هو إنهاء الانقسام تمهيداً لإنهاء الاحتلال.

٣ ـ ثورة شباب فلسطين بين التهوين والتهويل

ثمة حراك غير مسبوق لشباب فلسطين كأن روحاً جديدة دبت في أجسادهم وعقولهم فوُلدوا من جديد مكتشفين ذاتهم بعد طول غياب وتغييب. لقد باتت ثورة الشباب حديث الساعة في كل بيت، وعلى مواقع الفايس بوك، وفي الصحافة، وفي سيارات الأجرة، وفي الجامعات، وفي الأسواق والشوارع، إلخ، وبات الجميع في فلسطين كلها، وفي الشتات، يتحدث عن ثورة شباب فلسطين، بينما المجموعات الشبابية المؤتلفة في "تحالف١٥ آذار/مارس" كانت تتحرك بسرعة وبحذر وبقلق وبخوف أحياناً استعداداً لخروجها في ١٥ آذار/مارس ٢٠١١، فالاتهامات والأقاويل كانت تكثر من حول الشباب، والتهديدات والابتزازات والإغراءات تتناوشهم من كل الجهات، ومحاولة ضرب وحدتهم لا تتوقف.

إن القراءة السطحية لتحرك شباب فلسطين ستربطه تلقائياً بثورتَي الشباب في تونس ومصر لتزامن الحدثين. ولا شك في أن هناك تأثراً وتأثيراً بين جميع التحركات الشبابية الثورية في العالم العربي، لكن شباب فلسطين في ثورتهم يستحضرون تاريخهم من خلال استحضار تجربة آبائهم وأجدادهم عندما كانوا شباباً، فالذين فجّروا الثورة الفلسطينية في أواسط الستينيات كانوا من الشباب، والذين فجّروا الانتفاضة الأولى في سنة ١٩٨٧ كانوا من الشباب، والذين فجّروا وكانوا وقود ثورة الأقصى في سنة ٢٠٠٠ كانوا من الشباب، وأغلبية الشهداء الذين يواريهم الثرى في مقابر شهداء فلسطين في الوطن والشتات هي من الشباب أيضاً، والمعتقلون، في معظمهم، في سجون الاحتلال كانوا من الشباب عند اعتقالهم، ومعظم الجرحى من الشباب، إلخ.

إذاً، شباب فلسطين لا يقلدون أحداً، وإنما يستحضرون تاريخاً ويؤكدون حقيقة هي أن معظم الشعب المتضرر من الانقسام، والذي يريد إنهاءه، مكون من الشباب. ولذا، ليس غريباً أن يتحرك الشباب اليوم بعدما وصلت الحالة الوطنية إلى

الحضيض، فمشروع السلام الفلسطيني وصل إلى طريق مسدود، والمقاومة المسلحة باتت ذكرى وشعاراً، كما أنه ليس غريباً أن يطالب الشباب بحقهم في حرية التحرك، وفي إسماع صوتهم للعالم وللقيادات الحزبية التي حجرت عليهم طويلاً، وخصوصاً أن تحركهم أو ثورتهم اليوم غير موجّهين نحو أحد، ولا يهدفون من ورائهما إلى مناصب أو مواقع، ولا يريدون إسقاط حكومات أو سلطات، وإنما يريدون أن يشعروا بإنسانيتهم ووطنيتهم، وأن يكون لهم دور في إخراج الحالة السياسية من أزمتها، وأن يشاركوا في صناعة المستقبل، مستقبلهم ومستقبل الشعب. والأمر سيكون غريباً لو استمر شباب فلسطين في سلبيتهم بعد كل ما جرى ويجري في العالم العربي من حولهم. إن شباب فلسطين ينتفضون اليوم على سياسة استعمالهم كأدوات وأنابيب اختبار للأحزاب ولمقاولي المنظمات الأهلية ذات الأجندة الخارجية.

وفي موازاة تحرّك الشباب المشروع تتحرك قوى كانت سبباً في الانقسام، أو تعتاش منه، لإجهاض ثورة الشباب خوفاً على مواقعها ومراكزها ومصالحها، وعلى رأس هذه القوى تأتي الأحزاب التي اكتشفت أخيراً أن هناك شباباً يمثلون أغلبية الشعب، وأن هؤلاء ليسوا فقط ملصقي شعارات على الجدران، وطالبي كوبونة أو وظيفة، أو مشاريع شهادة تستحضرهم الأحزاب متى شاءت أن تُسوّق نفسها كحركات مقاومة إلخ، وإنما هم قوة دينامية وفاعلة ومؤثرة وعاقلة يمكنها أن تشارك في صناعة القرار، وتستطيع تحريك الشارع، بل إسقاط أنظمة وحكومات إن اقتضى الأمر ذلك.

وليس خطأ أن تتحرك الأحزاب، وإن كان تحركها متأخراً، لاستنهاض أطرها الشبابية، وليس خطأ أن ترفع الشعار الذي رفعه الشباب: "الشعب يريد إنهاء الانقسام"، لكن الخطأ والخطيئة أن تحاول هذه الأحزاب ركوب الموجة وحرف حراك الشباب عن هدفه بأن تموقع نفسها ـ وخصوصاً "فتح" و"حماس" ـ كضحايا الانقسام، كأن الشعب هو الذي صنع الانقسام، وبالتالي تطلب من الشعب أن ينهي انقسامه، وهذا يذكّرنا بخروج القذافي على رأس تظاهرات تطالب بالتغيير وبالقضاء على الفساد! ويبدو أن قادة أحزابنا تحولوا إلى قذّافيين جدد، ونحن نتمنى ألاّ يتعاملوا مع الشعب مثلما تعامل القذافي مع ثورة شعبه.

يجب تحرير ثورة الشباب من الحدّين الخطرين، أي من التهوين ومن التهويل. يجب عدم التهوين من شأن تحرك الشباب، أكان ثورة أم انتفاضة أم خروجاً أم قومة، إلخ، فالشباب قوة لا يستهان بها من حيث العدد، أو من حيث العقلية المتفتحة والقدرة على التواصل عبر وسائل الاتصال الحديثة، أو من حيث الاستعداد للتضحية. كما يجب عدم التهوين من ثورة الشباب أو تحقيرها واتهامها بالعمالة لهذه الجهة أو تلك، أو اعتقاداً أن ركوب موجة الثورة في ١٥ آذار/مارس، أو قمعها، سينهيان تلك الثورة فيعود الشباب إلى بيوتهم صاغرين مستسلمين، ذلك بأن قمع ثورتهم وإجهاضها وإهانتهم ستدفعهم إلى انتهاج وسائل أخرى يعبّرون من خلالها عن غضبهم وحقدهم على واقع يهين كرامتهم ويصادر مستقبلهم.

لكن في الوقت نفسه يجب عدم التهويل من ثورة الشباب رحمة بهم وبالحالة الوطنية بأكملها، إذ إن إسرائيل تتربص وتتمنى حدوث فتنة فلسطينية داخلية تلهي الفلسطينيين عن هدفهم الرئيسي وهو مواجهة الاحتلال. فالشباب لا يريدون إسقاط حكومات وأنظمة، ولا إسقاط "فتح" و"حماس"، وإنما تبليغ صوتهم، وتشكيل حالة ضاغطة على الحزبين الكبيرين وعلى الحكومتين والسلطتين لوضع حد للانقسام، وتعجيل المصالحة الوطنية كي تعود الحالة الفلسطينية إلى الحالة الطبيعية، فالشعب الخاضع للاحتلال يجب أن يكون موحداً في مواجهته. سيخرج الشباب إلى الشارع مطالبين بإنهاء الانقسام، وهي رسالة موجهة إلى حركتَي "فتح" و"حماس" المسؤولتين بدرجة كبيرة عن الانقسام، والقادرتين على إنهائه بالشكل الذي ترتئيانه خدمة للمصلحة الوطنية وبعيداً عن المحاصصة، وخصوصاً بعيداً عن مصالحة إدارة

الانقسام. يجب عدم التهوين من ثورة الشباب لأن ثورتهم ستكون الفتيل الذي ربما يفجر الحالة السياسية والأمنية إذا لم تتم الاستجابة لمطالبهم أو تفهّمها على أقل تقدير، فخروجهم يعني خروج أهاليهم، أي خروج الشعب كله، وآنذاك لن تنفع لا أجهزة أمنية ولا إغراءات مالية في إرجاعهم إلى بيوتهم.

وفي هذا السياق، على الشباب أن يحذروا من الدعوات التي تريد دفعهم إلى أن يكونوا أدوات في تأجيج الفتنة القائمة، كدفعهم إلى رفع شعارات إسقاط حكومة "حماس" في غزة، أو إسقاط السلطة في الضفة.. فشمولية وعمومية ووحدة التحرك والشعارات في الوطن كله، وفي الشتات، هي ضمان نجاح ثورة الشباب. كما يتعين على الشباب الحَذَر من الاستعدادات الكبيرة التي تبذلها السلطتان في غزة والضفة لركوب موجة الثورة، إذ سيحشد الطرفان شبابهما وأتباعهما، بل أجهزتهما الأمنية بملابس مدنية للخروج نهار الثلاثاء، فيوجِّهان الأحداث على الأرض كي يحوّلا الثورة إلى مجرد مسيرة كبيرة يقودها الحزب الحاكم في كل منطقة، وتنتهي بنهاية اليوم.

٤ ـ ثورة شباب فلسطين: إنجازات تحققت وأُخرى مقبلة

لقد خرج الشباب في ١٥ آذار/مارس في الضفة والقطاع وفي الشتات، وبعضهم بات قبل يوم في ساحة الجندي المجهول في غزة، وجرت المسيرة (الثورة) في الضفة بسلاسة، ورأينا قادة "حماس" مع بقية الفصائل يتصدرون المسيرة التي لم يُرفع فيها سوى علم فلسطين. وعند المساء قرر الشباب الاعتصام في دوّار المنارة من دون أن يمنعهم أو يقمعهم أحد، مع تسرب أخبار عن محاولات من مناصري حركة "فتح" التشويش على متظاهرين رفعوا شعارات منددة بالتنسيق الأمني وباتفاق أوسلو.

أمّا في غزة فسارت الأمور بشكل مغاير، إذ استنفرت حركة "حماس" وحكومتها جميع شبابهما وعناصرهما وأجهزتهما الأمنية كأنهما مقبلتان على معركة، وانتشرت عناصرهما المسلحة والمدنية في ساحة الجندي المجهول، وعلى مداخلها منذ الصباح الباكر، واستفردتا بالمنصة الرئيسية التي يجتمع حولها الإعلاميون رافعتين أعلامهما الحزبية. وتوالى على منصة الخطابة قيادات حمساوية تكلمت بما يتعارض مع مبادرة الشباب وشعار إنهاء الانقسام وتحقيق المصالحة، الأمر الذي دفع الشباب إلى التوجه إلى الساحة حيث وجدوا الأجهزة الأمنية أمامهم، التي منعتهم من الاعتصام، فحوّلوا وجهتهم إلى ساحة الكتيبة، وبعد ساعات قليلة باتت تلك الساحة مكتظة بأضعاف مَن تبقّى في ساحة الجندي تحت راية حركة "حماس"، الأمر الذي أثار الحركة وحكومتها على الرغم من أن الشباب لم يرفعوا إلاّ علم فلسطين ولم يرددوا إلاّ شعار إنهاء الانقسام. وفي الساعة السابعة تقريباً، قامت أجهزة أمن "حماس" ورجال بلباس مدني مسلحون يحملون هراوات وقضباناً حديدية وأسلحة حادة بمهاجمة الجمهور بشراسة متلفظين بألفاظ نابية موجهة إلى الشابات والنساء المعتصمات، وكانت النتيجة إحراق خيم المعتصمين وإصابة عديد منهم بالكسر والطعن.

ملاحظاتنا على ما جرى في ١٥ آذار/مارس ٢٠١١:

١ ـ مئات الآلاف الذين خرجوا عبّروا عن رأي معظم الشعب الذي يريد إنهاء الانقسام، وهؤلاء مثّلوا الشعب تمثيلاً حقيقياً وعبّروا عن شرعية تسمو على شرعية صناديق الانتخابات التي أصبحت ملغاة. وجسّد الحشد في ساحة الكتيبة الذي ضم جميع الأحزاب والفصائل والفاعليات الشبابية والنقابية والمدنية والشباب والأطفال والشيوخ، تعبيراً حقيقياً عن الوحدة الوطنية.

٢ ـ التزمت جميع الأحزاب والفصائل ما طالب به الشباب من التزام شعار إنهاء الانقسام فقط، ورفع العلم الفلسطيني من دون غيره، إلاّ حركة "حماس" التي حاولت حرف حراك الشباب عن وجهته رافعة علمها، وكنوع من التضليل ألصقت علم فلسطين

بعلمها هي، وفي هذا إهانة لفلسطين وعلمها، فحركة "حماس" مجرد حزب كبقية الأحزاب، وفلسطين تسمو على جميع الأحزاب، وعلمها فوق الأعلام كافة. وإن أرادت "حماس" تجسيد الوحدة من خلال علم مشترك فعليها أن تلصق علم "فتح" بعَلَمها، لأن المشكلة هي بين الحركتين وليس بين "حماس" وفلسطين، اللهم إلاّ إذا كانت "حماس" ترى أن مشكلتها مع فلسطين.

٣ ـ لم يكن الإعلام موضوعياً في نقل ما حدث، فعلاوة على تصرّف قناة "الجزيرة" التي عودتنا أن تصاب كاميراتها بحول أو عور عندما يتعلق الأمر بفلسطين، إذ إنها لم تغطِ ما جرى في ساحة الكتيبة، وإنما اكتفت بتسجيل ما جرى في ساحة الجندي المجهول، فإن مراسل الـ بي. بي. سي. (B.B.C) في غزة لم يملك الشجاعة الكافية كي يقول الحقيقة عندما ذكر أن الاتفاق كان بين الفصائل على ألاّ يُرفع إلاّ علم فلسطين، وأن أعلام جميع الفصائل رُفعت في التجمع، وهو يعلم، والكل كان شاهداً على ذلك، أن حركة "حماس" وحدها خرقت الاتفاق ورفعت علمها، ولم يرتفع أي علم فصائلي إلاّ علم "حماس"، وبالتالي كان عليه أن يكون شجاعاً وموضوعياً فيقول إن حركة "حماس" وحدها خرقت الاتفاق ورفعت علمها.

٤ ـ لا ندري ما كان يُضير حركة "حماس" وحكومتها لو تركتا الشباب يبيتون ليلتهم في ساحة الكتيبة، وخصوصاً أنهم كانوا يتهيئون لنشاط فني مثل الدبكة والرسم والأهازيج الشعبية معتقدين، ببراءة، أنهم مثل شباب مصر وبقية شباب العالم يمكنهم التعبير عن مشاعرهم الإنسانية والوطنية بحرّية. وفي سياق الحديث عن البراءة سألني أحد الشباب قبل يوم من خروجهم: ماذا نفعل لو قدمت لنا أجهزة الأمن الحمساوية وجبات طعام أو علب عصائر ومياهاً، هل نأخذها أم لا؟ فقلت له لو فعلوا ذلك فهذه بادرة طيبة على تفهّمهم وتقبّلهم لحركتكم ولا داعي لرفضها، لكن كان ما كان، فقد قدموا لهم وجبات ساخنة علقت على أجسادهم ورسخت في عقولهم، ولن ينسوها طوال حياتهم.

٥ ـ على الرغم من قمع الشباب في ساحة الكتيبة وما بعد ذلك من استدعاء واعتقالات واعتداءات وصلت إلى حرم جامعة الأزهر وجامعة القدس المفتوحة، فإن ثورة شباب ١٥ آذار/مارس حققت إنجازاً مهماً في جولتها الأولى، وعلى الشباب أن يفتخروا بما حققوا، ذلك بأنهم استنهضوا حالة ثورية شعبية كانت نائمة أو ميتة، وأثبتوا أن الشباب قوة محركة تستطيع أن تغير الأوضاع وتحرج الحكومات والسلطات.

٦ ـ على الشباب أن يفتخروا بأن الجولة الأولى من ثورتهم حركت ملف المصالحة الراكد، حتى إن كان حراكاً تحت إحراج ثورة الشباب وضغطها.

وفي جميع الحالات، فإن على الشباب أن يكونوا مستعدين لجولات أُخرى من الحراك والثورة لأن الشعب الفلسطيني بات أكثر مراهنة عليهم، ونعتقد أن الأمور بعد ١٥ آذار/مارس لن تكون كما كانت قبله.

III ـ خاتمة

إن الثورات التي تشهدها أغلبية الدول العربية ليست حدثاً عادياً يمكن تصنيفه وقراءته في إطار الهبّات الاحتجاجية الشعبية التي تعرفها جميع الشعوب، ذلك بأن عموميتها وشموليتها لقطاعات الشعب كلها، تجعلان منها ظاهرة فريدة حتى على المستوى العالمي. فما يجري في العالم العربي منذ كانون الثاني/يناير ٢٠١١، كان خارج إطار ما يفكر فيه علماء السياسة والاجتماع، وخارج مجمل التنظيرات السياسية والدستورية التي تراكمت خلال عقود، بل إنه، وبغض النظر عن مآله، سيعيد رسم الخريطة السياسية للواقع العربي سياسياً واجتماعياً وربما جغرافياً.

وإذا كانت الحالة الثورية العربية أحيت آمالاً ورفعت سقف توقعات عشاق الحرية والديمقراطية، إلاّ إنها في الوقت نفسه تثير تخوفات على الثورة ومنها: تخوفات عليها ممّن يرومون سرقتها بركوب موجتها وتوجيه مسارها نحو خدمة سياسات

ومصالح تتعارض مع تطلعات أغلبية الجماهير التي خرجت في الثورة، وتخوفات من انزلاق الثورة في بعض الدول، الأمر الذي يؤدي إلى حالة من الحرب الأهلية أو الإقليمية، وهو ما يتطلب من علماء السياسة والاجتماع الانكباب على دراسة ظاهرة الثورة بعمق، وخصوصاً أن فصولها كلها لم تكتمل بعد، ولم تظهر جميع أبعادها وتداعياتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وربما يشهد العالم العربي، عقداً من الزمن على الأقل، حالة من عدم الاستقرار إلى أن تظهر مفاعيل الثورات التي بدأها الشباب في تونس.

وإن كان حكمنا الأوّلي على الثورة إيجابياً ومبارِكاً لها، فإن النيات والتمنيات وحدها لا تكفي، إذ إنه من المؤكد أن كل فعل أو تحوّل سياسي إنما يتم تقويمهما من خلال نتائجهما النهائية، لا من خلال شعارات القائمين عليهما. وبالنسبة إلى القضية الفلسطينية فإن ثورات العالم العربي جميعاً، ومهما تكن منجزاتها، لن تغني الفلسطينيين عن ثورتهم الخاصة بهم؛ ثورة ضد الانقسام وضد الاحتلال. وما لم يَثُر الفلسطينيون على أوضاعهم فإن الثورات العربية كلها لن تنفعهم، كما أن العرب والمسلمين لن يكونوا أكثر فلسطينية من الفلسطينيين. ■

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

مقالات تاريخية
تكريماً للأستاذ الدكتور
بطرس أبو منّه

إعداد وتحرير
عطا الله قبطي؛ جوني منصور؛ مصطفى عباسي